وهكذا يبشر السيد المسيح بني إسرائيل والحواريين بالرسالة الأحمدية المحمدية، مفضلاً له على نفسه وسواه، وأنه يستقل بشريعة عالمية خالدة فيها تبيان كل شيء: كما بشر به النبيون من قبل:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾:

بينات فيما بشر به من اسمه وسماته وصفاته، وآيات بينات في كتابه تبين بوضوح أنه من عند الله العزيز الحكيم، وبينات في تشريعاته وتصرفاته، بحيث أصبح كله بينات، ولكنهم لحقدهم العصيب ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ترى كيف تكون الحقيقة إذا كانت البينات الأحمدية سحراً؟!

إن صيغ البشارة بالنبي الآتي، التي نعهدها من حملة الرسالات الإلهية، تصور لنا حلقات الرسالة المترابطة، يسلم بعضها إلى بعض، وهي وحدة متماسكة في أصلها واتجاهها، مهما اختلفت في شكلياتها حسب المقتضيات، إنها ممتدة من السماء إلى الأرض، وبشارة السيد المسيح ثابتة بهذا النص، سواء تواجدت في الأناجيل الحالية أم لا، ولكنها موجودة كما عرفناه وإن كان عليها سمة التحريف فإن نور الله لا يطفأ مهما حاول الكافرون في إطفائه.

وبشارة السيد المسيح لا تختص باسم (أحمد) وإن كانت أفضلها إذ يحمل تفضيله ﷺ.. فالنص «وإذ قال» مما يدل على أنه من بشاراته، لا «إذ كان يقول» حتى تدل على أنه كان (أحمد) دائماً، بل و(محمد) أيضاً.

هنا نلفت أنظار الذين يقولون: إننا مسيحيون، ثم لا يؤمنون بمحمد ﷺ أنهم ليسوا بمسيحيين أيضاً إذ رفضوا بشارته وتركوا وصيته في محمد ﷺ.

وأما الذين آمنوا به فهم حقاً مسيحيون ومسلمون إذ آمنوا به تطبيقاً لوصية السيد المسيح عليه السلام. ٢٢١

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾:

المفترون على الله الكذب فرق شتى، بين مفترٍ لا يعلم، ومتجاهل يعلم، وعالم لا يجهل ولا يتجاهل، وإنما يفتري علماً وعناداً فلا أظلم منه، ومنهم من يُدعى إلى الإسلام، بحجة البشارات الصادقة لرسول الإسلام، وبسائر الحجج القاطعة للأعذار، ورغم كل ذلك يفتري على الله الكذب، في تكذيب رسوله المبشر به من قبل، وتكذيب رسالته التي تحمل كافة بينات الصدق، فمن أظلم منه ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إذ لا يريدون الهداية ويرفضون الهداة.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾:

نور الله هنا هو الرسول محمد ﷺ، فإنه نور الأنوار الرسالية، وهو القرآن: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1] ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2].

والفرق بين ﴿لِيُطْفِـُٔوا۟﴾ و«أن يطفئوا» أن في الأول الإرادة واجهة لأمر يتوصلون به إلى إطفاء نور الله، كنكران البشارات، وتسحير المعجزات، ولكي يُطفأ النور المحمدي، وفي الثاني القصد إلى إطفاء نور الله بالقضاء على النبي ودعوته قصداً بالذات.

فرغم محاولات الكافرين وحيلهم في إطفاء نور الله، إن الله حتم على نفسه إبقاء نوره وإتمامه، وكما نرى البشارات المحرّفة بأيدي الدس

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٢.

والتحريف، إنها تدلُّ على تحرُّفها، وتدلُّ من خلاله دلالات بيّنة على صاحب الرسالة السامية محمد ﷺ وتفضح المحرفين، فالذين حوَّلوا (بيركلتوس): أحمد - إلى (باركلتوس): المسلي، لكي يحوّلوه عن أحمد الرسول إلى مسلي الروح، فهل باستطاعتهم تحويل صفاته وسماته إلى غيرها؟ لذلك ظلّت هذه البشارة الأحمدية مشرقة دائبة خارقة ظلمات التحريف والتجديف! وهي الإرادة ليطفئوا نور الله، وكذلك إطفاءه بالقضاء على الدعوة الإسلامية، فإنها مطلّة على العالم أجمع وطالعة ما طلعت الشمس وغربت، لا تطفئ نوره ولا ذاته وصفاته.

إنه نص يرثي الكافرين مستهزئاً بهم، فما قولهم بأفواههم ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ إشارة إلى المعجزة التامة الكافلة، إلا كمن يحاول إطفاء نور الشمس بنفخة من فيه، فما أفضحه وأعجزه من هؤلاء الضعاف المهازيل!.

فالنار هي التي تُطفأ مهما طالت زبانيتها، ولكنما النور، المستمدة من نور الله وإرادته، إنها ليست بالتي تُطفأ، وإنما تزداد إشراقاً وتماماً رغم تطاول الإطفائيات الطائلة الجاهلة، مهما يخيّل للطغاة الجبارين، وللأبطال المصطنعين بأيدي وعلى أعين الصليبيين والصهاينة المجرمين، أنهم بالغوا هذا الهدف البعيد.

ترى إن الله تطفأ ذاته النورية بإطفاء الكافرين؟ فكذلك نوره، فإنه طالع من مطلع ليس له أفول وهو الحضرة الإلهية: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۚ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾[1].

ومن أرجَل وأبطَل هؤلاء الرجال الأنوار، الرسولُ الأقدس محمد ﷺ وأهل بيته الطاهرون المعصومون كما وردت بذلك متواتر الآثار.

إنه ليس إتمام النور المحمدي بإبقاء شخصه حيّاً، ولا ببقاء دينه حيناً سليماً عن النقص والنقض، وإنما هو إظهاره على الدين كله: أن يحكم العالم أجمع ولو كره الكافرون والمشركون:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ . . . وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[2] ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾: كأنه الرسول لا سواه، فمن هكذا إضافة يستفاد الحصر، ولأنه يحمل الرسالات الإلهية وزيادة خالدة ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾: كل الهدى التي تتطلبها وتحتاجها الحياة العقلانية وأضرابها على طول الخط، دون نقص أو نسخ ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾: دين للحق: الثابت - لا «الدين الحق» لأن رُسل الله كلهم مرسلون بالدين الحق، فـ«دين الحق» هو الثابت من الدين الذي ليس له دور خاص ولا جماعة خاصة، فدوره شامل ما دامت هذه الحياة قائمة، وجماعته هم المكلفون أجمعون، حقٌّ بكافة معانيه: ثبوتاً وجاه زلازل التشويهات والتمزيقات والتحريفات، وثبوتاً تجاه النسخ بشريعة أخرى إلهية، فإنه لا شريعة بعده، فهو حق يجري في مجاري الحياة جري الشمس.

فلقد حرفت الكتب الإلهامية الأخرى، وانتهت لحال لا تصلح معها لشيء

(١) سورة النور، الآيات: ٣٥-٣٧.
(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٨.

من قيادة الحياة، وحتى لو ظلت سليمة عن التحريفات، فهي نسخة سابقة مؤقتة لأدوارها المحددة لها، لا تشمل كافة طلبات الحياة المترامية الأطراف، المتجددة دائبة، فليست هي «دين الحق» مهما كانت «الدين الحق».

و«دين الحق» هكذا يستحق الظهور على الدين كله، وكما جعل غاية لحقه: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾: على الدين الباطل كله: الطاعة الباطلة، وهي شرعة الشيطان، وعلى الدين الحق كله[1]، إذ ينسخ الشرائع كلها، ويكمّلها، فلا يبقى دين إلا دين الإسلام، وكما وُعدناه في دولة القائم المهدي محمد بن الحسن العسكري عليه السلام الذي به يملأ الله الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً.

إن جذور ومؤهلات هذه الغاية متواجدة في شريعة الإسلام، مهما لم تتحقق زمن الرسول صلى الله عليه وآله وخلفائه حتى الآن ظهوراً على الأديان، ولكنها سوف تتحقق في الدولة المحمدية الأخيرة التي يبتدىء بها مؤسساً لها حفيده المهدي المنتظر عليه السلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾: ظهوراً وغَلَباً شاملاً بدينه وكتابه، وبشخصيته الرسالية، مهما قضى شخصُه نحبَه، وانقضى دوره كشخص، ولكنه مستمرٌ في دعوته، في كتابه وكيانه، في خلفائه الأوصياء الأوفياء، فيمن تخضع له الأمم كما بُشرنا به في كتابات السماء[2].

إن الديانات الأخرى، من حق وباطل، ليست لها مؤهلات الغلبة الشاملة، وتأسيس دولة موحدة عالمية، لا في ذواتها، ولا في زعاماتها، ولكنما الإسلام يملك هذه الأهلية فيهما معاً، فدستوره العالمي هو قرآنه الكامل، الحافل لكافة متطلبات الحياة، وقيادته العالمية هي الظاهرة في

(١) تفسير البرهان ٤: ٣٣٠ - عن أبي الفضيل عن أبي الحسن الماضي عليه السلام في الآية قال: يظهره على جميع الأديان عند قيام القائم عليه السلام.

(٢) راجع (رسول الإسلام في الكتب السماوية) تجد فيه بشارات عدة بشأن القائم المهدي عليه السلام.

رسوله وأوصيائه، والباهرة أخيراً في القائم المهدي عليه السلام ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾: الذين يشركون بالله في طاعته وعبادته، في دينه وحكمه، فليحكم دين الله وحده، ظاهراً على الدين كله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ إذ يشهد في كتاباته ببشارات تتلاحق بحق هذا الدين وهذا الظهور، وإذ يشهد بما يؤيد أهل هذا الدين فيما يأملون، من كانوا يعلمون ويعملون، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1].

إن الإسلام ليس فكراً أو نظرية في بطون الكتب، تترسمها الأجيال فيعيشوا الخيال بعيداً عن الواقع، إنما هو دين الحياة الواقعة، حقيقة في عالم الواقع، ما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين حين وآخر، وتنبض وتنتفض قائمة على جذورها المجردة عن الأباطيل، رغم كل ما جرّد على الإسلام والمسلمين من كيد وحرب وتنكيل، وظهرت قوة وحقيقة ونظاماً على سائر الدين قدر ما أظهرتها جماعتها، فدانت لها معظم الرقعة العامرة مدى قرون من الزمن.. وإلى أن يدين لها كل المعمورة طوعاً أو كرهاً بقوة النور والنار، طوع الأبرار وكُره الأشرار ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

إن إتمام نور الإسلام ليس إلا في زمن يشمل العالم كله، فيرتفع فيه علم الإسلام مرفرفاً لا ندّ له ولا ضد، وكما سمع علي عليه السلام يقول تفسيراً لهذه الآية: «كلا والذي نفسي بيده حتى لا يبقى قرية إلا ويُنادى فيها بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله بكرة وعشياً»[2].

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) تفسير العياشي بالإسناد عن عمران بن هيثم عن عباية أنه سمع أمير المؤمنين عليه السلام يقول في الآية: أظهر ذلك بعد؟ قالوا: نعم. قال: كلا...

وعن ابن عباس في الآية قال: لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهودي ولا نصراني ولا صاحب ملة إلا صار إلى الإسلام، حتى تأمن الشاة والذئب والبقرة والأسد والإنسان والحية، حتى لا تقرض فارة جراباً وحتى توضع الجزية ويكسر الصليب ويقتل الخنزير، وهو قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣] وذلك يكون عند قيام القائم عليه السلام. =

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾﴾:

هنا إيمان أول هو رسمه وصورته قبل أن يتعرّق في القلوب، وهو الإيمان التقليدي، فهو لا ينجي - بمجرده - من عذاب أليم، إنما هو رأس مال يتجر به، والتجارة تصرف في رأس المال طلباً للربح، وهذا الإيمان الأول هو رأس مال لربح الإيمان العريق بالله ورسوله والجهاد في سبيله بالأموال والأنفس، ثم هذا الربح أيضاً رأس مال لتجارة ثانية وربحُها النجاة من عذاب أليم، تجارة متسلسلة ترجع لآخر المطاف إلى نجاة قاطعة عن حياة بئيسة في الدنيا وفي الآخرة، دون اختصاص بالأولى، مهما كانت في الآخرة أتمّ وأولى.

إنها تجارة من رأس مالها أنفس المؤمنين وأموالهم - وهي من الله -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ . . . فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾[1].

فبأنفسهم يؤمنون بالله ورسوله ثانياً، ويفتدون بهما في سبيل الله مجاهدين، وبأموالهم كذلك يجاهدون صرفاً لها في سبيل الله، ولكي تصبح حياتهم المؤمنة كلها قنطرة وسبيلاً لله دون أن يكون لغير الله فيها نصيب.

في آية التجارة تُقدَّم الأموال لتقدُّمها في تقديم المجاهدين بالعُدَد المكافحة، ثم إذا نفدت الأموال أو ما كفت أو ما أفادت لحسم جذور الفساد، فلتقدَّم الأنفس فداءً بعد الأموال في سبيل الله، وفي الآية الثانية تُقدَّم الأنفس لأنها الأصل في الجهاد، وإذا قُدِّم الأصل فتقديم الفرع - وهو المال - سهل.

= وعن جابر بن يزيد عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: يظهره الله عزوجل في الرجعة (تفسير البرهان ٤: ٣٣٠).

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

ومن عوائد هذه التجارة غفر الذنوب ودخول الجنة، إيجاباً للرحمة بَعد البُعد عن العذاب:

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾:

فغفر الذنوب كلها ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾ الغابرة والحاضرة - وهي صغائر المعاصي - إنه رهين هذا الإيمان العقائدي والعملي التام، فإنه يضم كبائر الطاعات فعلاً: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[1] وكبائر المعاصي تركاً: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[2]، ثم بقية حاضرة بجنب أمثالها والمستقبلة:

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾:

وتجارة وعائدة أخرى، تحبونها هنا ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إذ تنصرون دينه ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾: فتح مكة المكرمة وهو فتح الفتوح فيما مضى، وفتح القائم المهدي عليه السلام[3]، وهو أشمل، وإن كان متأخراً بزمن، فكل آتٍ قريب. فقد تربحكم هذه التجارة في الحياتين ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بهذه الفتوحات والأرباح الدائبة، وإنما المؤمنين المجاهدين بكل ما لديهم من إمكانيات، لا القاعدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾:

هذه المقالة من السيد المسيح هي لما أحسَّ منهم الكفر: «فلما أحسَّ

(١) سورة هود، الآية: ١١٤.
(٢) سورة النساء، الآية: ٣١.
(٣) القمي أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية: يعني في الدنيا بفتح القائم عليه السلام، وأيضاً فتح مكة.

عيسى منهم الكفر قال مَن أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنّا بالله واشهد بأنّا مسلمون. ربنا آمنّا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين. ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾(١).

كون الإنسان من أنصار الله والأنصار إلى الله لا يعني أن الله بحاجة إلى نصرة في ذاته أو صفاته أو أفعاله إلى عباده الضعفاء المهازيل، وإنما يعني نصرة الإنسان نفسه في صالحه الحيوي بكافة مجالاتها، الذي لا يصلح إلا بإرادة الله ودلالته، فليس بإمكان الإنسان أياً كان أن ينصر نفسه إلا على ضوء شريعة الله المسنونة لصالح الإنسان، وتوفيقه الذي يرافقه فيه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾(٢). ومن نصرة الله نصرة رسوله الدال عليه، السالك سبيله: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾(٣) كما والتنظير: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ يوحي بأصالة هذه النصرة في نصرة الله، فكونوا أنصاراً لرسول الله في الدعوة والاتجاه إلى الله، وتطبيق ونشر شريعة الله، في صفوف متراصّة رزينة رصينة صامدة لا تنفصم: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾(٤) وتُعاكس نصرة الله هكذا أن ينصر ناصريه، مما يدلُّ على أن نصرته تعالى هي نصرتهم أنفسهم بدلالته وتوفيقه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾(٥) ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(٦).

والحواريون الأنصار هم تلاميذ السيد المسيح، الأخصاء، منطلق دعوته الذين كانوا يلوذون به ويأخذون عنه، منقطعين عمن سواه من معلمين

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٤.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.
(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.
(٥) سورة محمد، الآية: ٧.
(٦) سورة الحج، الآية: ٤٠.

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أنصارك إلى الله، بما أنك وسيط في هذه السبيل، لا أصيل ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بالمسيح أو بنصرته إلى الله ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ كذلك ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ الكافرين والتاركين لنصرته «فأصبحوا» بإيمانهم بالله ومن ثم بتأييد الله ﴿ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين على عدّوهم، ومن ذلك أنهم ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[1] في محاولة صلبه إذ صلب من أُلقي عليه شبهه ورُفِع هو إلى سماء رحمة الله، وهكذا يكون دور الإيمان والمناصرة في الله، عالياً ظاهراً على الأعداء مهما كانت جولة الباطل، فإن للحق دولة!.

والعبرة المستفادة عبر نصرة الحواريين والذين حذوا حذوهم، هي استنهاض همّة المؤمنين بالشريعة الأخيرة من دين الله، المختارين لهذه المهمة الكبرى، أن يقوموا قومة رجل واحد لنصرة صاحب الرسالة السامية الأخيرة، ليؤدّوا هذه الأمانة الكبرى إلى الأمم سليمة عزيزة، ولكي تحكم العالم أجمع في جولته الأخيرة.

ولعمر الله أن نصرة المؤمنين بهذه الرسالة كانت عالية غالية، إذ نصروا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وآله عليهم السلام في مختلف الأخطار الحاسمة[2]، خلاف ما نُبِّئنا عن أنصار السيد المسيح، إذ كانوا قلة وهم لم ينصروه إلا قليلاً حتى رفعه الله!.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٤.

(٢) أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن حواري عيسى كانوا شيعته وإن شيعتنا حوارينا وما كان حواري عيسى بأطوع له من حوارينا لنا، وإنما قال عيسى للحواريين من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله، فلا والله ما نصروه من اليهود ولا قاتلوهم دونه، وشيعتنا والله لا يزالون منذ قبض الله عزوجل رسوله ينصروننا ويقاتلون دوننا ويحرقون ويعذبون ويشردون من البلدان، جزاهم الله عنا خيراً. وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: والله لو ضربت خيشوم محبينا بالسيف ما أبغضونا، والله لو آويت مبغضيه أو حبوت لهم من المال ما أحبونا.

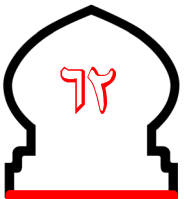

سُورَةُ الجُمُعَةِ

سُورَةُ الجُمُعَةِ

مدنية - وآياتها إحدى عشرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ
(١) هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢)
وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٣) ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ
يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٤) مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ
ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥) قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ
بِٱلظَّٰلِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ
تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ
وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ
ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾

سورة تسمى باسم أفضل أيام الله الذي يؤتى فيها بأفضل فريضة من فرائض الله، المشرف بها المسلمون، المفضلون بها عمن قبلهم كما يروى عن النبي ﷺ، كما وأن سورة الحج تسمّت باسم هذه الفريضة العظمى التي تزامل صلاة الجمعة في فرضها وفضلها، بل وهي أفضل منها فإنها مؤتمر سنوي عالمي تشكل مملكة الحج، وهذه مؤتمر أسبوعي بلدي.

ثم لا نجد سورة أخرى تتسمّى باسم أية فريضة إسلامية سواهما، مما يوحي بمدى أهمية هذين الفرضين الجماعيين اللذين هما كمفتاح لسائر الفرائض، يجمعان بين شتات القطاعات المسلمة التي تفصلها فصالات الأمكنة واللغات والطائفيات والقوميات.

فصلاة الجمعة سيدة الفرائض، كما يوم الجمعة سيد الأيام وأعظم عند الله من يوم الأضحى والفطر، فإن له من سابق الفضل وواقعه ولاحقه عبر الزمن ما ليس لغيره من الأيام:

فإنه يوم جمع الله فيه الخلق بعد الأدوار الستة للخلق، فالجمعة في هذا الأسبوع العالمي هو يوم الجمع العام، كما أنها لغوياً كثير الجمع، ولذلك جعل عيد الإسلام الأسبوعي لأنه جماع الشرائع، ولكثرة الجمع المفروض في فرضها.

ثم هو يوم خلق الله فيه آدم حيث أتمَّ جمع روحه إلى جسمه، وفيه جمع له زوجته، وفيه أسجد له ملائكته، وفيه أدخله وزوجه جنته، وفيه تاب الله عليه عن خطيئته، وفيه أهبطه إلى الأرض، وفيه قال الله للنار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، وفيه فدى الله إسماعيل بذبح عظيم، وفيه كشف الله عن أيوب كربه، وفيه استجاب الله ليعقوب دعاءه، وفيه حملت السيدة مريم

السيد المسيح، وفيه خلق الله تعالى الأنبياء والأوصياء، وفيه جمع الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم أمره، وفيه قام الإمام الحسين عليه السلام قومته الثائرة، وفيه يقوم القائم المهدي عليه السلام، وفيه - بين الظهر والعصر - تقوم القيامة الكبرى.

ليلتها غرّاء، ويومها زاهر، وليس على وجه الأرض يوم تغرب فيه الشمس أكثر معافىً من النار منه، يضاعف الله عز وجل فيه الحسنات، ويمحو فيه السيئات، ويرفع فيه الدرجات، ويستجيب فيه الدعوات، ويكشف فيه الكربات، ويقضي فيه عظام الحاجات، ما دعا اللهَ فيه أحدٌ من الناس وعرف حقه وحرمته إلا كان حتماً على الله أن يجعله من عتقائه وطلقائه من النار، فمن وافق منكم يوم الجمعة فلا يشتغلن بشيء غير العبادة، كما وردت بذلك الأخبار عن الرسول الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الأطهار عليهم السلام [1].

ولأن صلاة الجمعة هي القمة في فرائض الله، جعل وقتها هذا اليوم المبارك الميمون، طالما تكسب الجمعة من صلاة الجمعة فضلاً عظيماً على فضائلها.

إن فريضة الجمعة مؤتمر أسبوعي يهيئ الجو للمؤتمر العالمي السنوي - الحج - تجمع من المسلمين لأدائها والاستماع إلى خطبتيها السياسيتين الإسلاميتين آلافاً من المسلمين العائشين في الدائرة التي تقام في مركزها الجمعة، وقطرها على أقل تقدير (٢٢) كيلومتراً.

الآيات الأولى في هذه السورة هي تقدمات وتهيئات لآيات فرض الجمعة، فإنه ذكر الله الجامع مجامعه، الحافل محامده، ولذلك نرى مطلع السورة كيف يقرر حقيقة التسبيح المستمرة من الكائنات كلها، فإنها جمعة في تسبيح الله، فلتكن الجمعة جمعة في ذكر الله وتسبيحه:

(١) راجع البحار الجديد المجلد ٨٩ ص ٢٦٣ - ٢٨٦، فإن ما نقلناه متون الأحاديث مع زيادات شارحة.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾:

﴿يُسَبِّحُ﴾ لمضارعتها توحي باستمرارية التسبيح لله من كائنات الأرض والسماوات، والصفات الأربع هي كدعائم لهذا التسبيح الشامل:

فلأنه ﴿الْمَلِكِ﴾: يملك الكائنات مدبراً لها - يسبِّح، فما كل ملكٍ يسبح، إنما ﴿الْقُدُّوسِ﴾ الذي كله قداسة ونزاهة: ذاته وصفاته وأفعاله، ولا كل ملك قدوس يسبح، إنما ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب على أمره، فإن المغلوب على أمره قد يضطر لما لا يسبِّح وينزه، ولا كل ملك قدوس عزيز يسبح، فقد لا يكون حكيماً في ملكه وقدسه وعزته، وإنما ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾: الذي هو حكيم في ملكه، حكيم في قدسه، حكيم في عزته، فهو الذي تسبحه الكائنات وتنزهه، ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً، عن كل شين ورين، تسبحه طوعاً أو كرهاً، فإن الكائنات بما هي مخلوقة، إنها بألسنة الذوات والصفات تسبح خالقها من كل نقص وتفاوت ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[1].

هذا الإله العظيم يبعث لخلقه رسولاً، ترى كيف يكون هذا الرسول وهو البقية الباقية من رسالات الله واللامتناهية من رحمات الله:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾:

ترى من هم الأميون هنا، والرسول منهم ومبعوث فيهم؟ أهم غير الذين أوتوا الكتاب من موحدين ومشركين وماديين، فالكتابي ليس محط الدعوة الإسلامية؟: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾[2] وهؤلاء الأميون من أهل الكتاب الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، ومَن سواهم الذين لم يؤتوا الكتاب، هؤلاء وهؤلاء تشملهم الدعوة الإسلامية!: ﴿وَقُل

(١) سورة الملك، الآية: ٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٨.

﴿لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ﴾[١] استفهام تقرير لمن أسلم وإنكار على من لم يسلم، فلا تخص الرسالة الإسلامية هؤلاء الأميين!

أم هم العرب من أم القرى «مكة المكرمة» ولأنها سميت أم القرى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾؟ ولكنهم اللبنة الأولى في بناية هذه الدعوة ومنطلقها إلى من حولها: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[٢]: الجنة والناس أجمعون، والمكلفون سواهم إن كانوا، فإن «القرى» جمع محلى بلام الاستغراق تستغرق كافة القرى والمجتمعات، فهي المكلفون أجمع، المحتفون حول العاصمة الرسالية الأم، مهما كانوا بعيدين مكاناً وإن في السماوات، فضلاً عن هذه المعمورة الصغيرة: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنْۢ بَلَغَۚ﴾[٣]: من بلغه القرآن، إنساناً وغير إنسان، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[٤] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[٥] لا تختصه بالناس، وكما تدل ثنائية الخطابات في الرحمن، ثم و«من بلغ» تعمها وسائر من يبلغه.

فـ «الأميين» في آية الجمعة قد تعني المكلفين أجمع والرسول منهم، لأنهم أجمع أميون بالنسبة للقرآن قبل نزوله، كما الرسول كذلك: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾[٦] فقومه هم المرسل إليهم أجمع: طول العالم وعرضه! ثم وله خاصة وبأحرى لغيره: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ﴾[٧] ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[٨] ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[٩].

إن الأمية - وهي النسبة إلى الأم - تعني الجهل واقعياً أو نسبياً، واقعياً

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٩.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.
(٥) سورة سبأ، الآية: ٢٨.
(٦) سورة هود، الآية: ٤٩.
(٧) سورة النساء، الآية: ١١٣.
(٨) سورة الشورى، الآية: ٥٢.
(٩) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

لمن يجهل كل شيء وحياً وسواه: أن ظل لا يعلم شيئاً كما ولد من أمه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[١] وهذه هي الأمية المحضة.

ثم النسبية فهي درجات: ممن درس علوماً غير كتابية، فإنه أُمي بالنسبة للوحي الكتابي مهما كان مثقفاً في سواه ولأعلى درجات الثقافة، فهو من الأميين وجاه الذين أوتوا الكتاب وإن لم يدرسوا ما درسه: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾[٢].

ومَن أوتي الكتاب ولا يفهمه إلا أماني: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾[٣] فهو أمي في علم الكتاب رغم أنه كتابي.

ومَن أُوتي الكتاب وعلمه، ولكن لم يؤمن بالوحي الأخير «أم الكتاب: القرآن الكريم» فإنه أُمي بالنسبة لعلم القرآن مهما كان عبقرياً في سائر الوحي قبل القرآن، وفي سائر العلوم سوى الوحي، وهذه هي حالة المكلفين أجمع ومنهم الرسول الأمي، ومعه ملائكة الوحي وجبريل، حالتهم قبل وحي القرآن: إنهم كلهم أميون، الموحدون منهم والمشركون.

فالرسول محمد ﷺ أمي كسائر الأميين بالنسبة للقرآن قبل وحيه، إضافة إلى أنه لم يقرأ على أي مقرئ ولم يكتب عند أي كاتب قبل نزول القرآن، وإن كان موحداً يلهم بواسطة أفضل ملك من ملائكة الوحي ليلة ونهاره يرشده سبيل المكارم ويعلمه أحسن أخلاق العالم.

إنه أمي مبعوث في الأميين وهم كافة المكلفين في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، في السماوات والأرضين: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾!

ولئن كان الأميون في آية الجمعة هم أهالي أم القرى، فهو رسول

(١) سورة النحل، الآية: ٧٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٧٨.

فيهم، لا إليهم خاصة، وإنما «فيهم» وهو رسول العالم أجمع، لأنه ولد فيهم، وأنهم محط الدعوة الأولى ومنطلقها إلى العالم أجمع.

ثم وبعد أن نزل عليه القرآن زالت أميته وأصبح أقرأ القراء بما يقرأ أم الكتاب حافظاً له غير ناس، معلماً فيه للجنة والناس، ومن أكتب الكتاب، حيث الأمية هذه خاصة بما قبل نزول القرآن: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1] وأما بعده فأنت تتلو وتخط بما أوحى الله[2]!

كما وزالت الأمية ممن أرسل إليهم، كلٌّ حسب وعيه، فأهل القرآن درجات في علمه والإيمان به، كما أن غيرهم دركات في أميتهم علماً وإيماناً به.

فـ﴿هُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِى بَعَثَ﴾: في الذين أماتتهم الجهالة الجهلاء، وأرقدتهم عن النهوض بأعباء الحياة: ﴿فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾: العالمين أجمع، ولقد كانت أميته عن أي علم أكثر من بعضهم كتابة وقراءة: وحي الكتاب وسواه، اللهم إلا في معرفة الله وطاعته بإرشادٍ مباشر من ملك الوحي ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ في البشرية والأمية أم ماذا: ﴿يَتْلُواْ...﴾:

ثم المهمة من هذه الرسالة السامية في المرسل إليهم ثلاثية هي: تلاوة آيات الله، وتَزْكِيَتهم، وتعليمهم الكتاب والحكمة، وكما في دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ... رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[3]

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

(٢) بصائر الدرجات عن الإمام الصادق عليه السلام: إن النبي صلى الله عليه وآله كان يقرأ ويكتب ويقرأ ما لم يكتب وفي علل الشرائع عن الإمام الباقر عليه السلام لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأ ويكتب باثنين وسبعين لساناً (نور الثقلين ٥: ٣٢٢) أقول: يعني بعد وحي القرآن.

(٣) سورة البقرة، الآيتان: ١٢٨، ١٢٩.

ولذلك يقول الرسول ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم» ولقد سمع الله دعوته في محمد واثني عشر إماماً من عترته كما في التوراة[١].

وهل تتقدم التزكية على تعليم الكتاب والحكمة في الأهمية، أو في واقع التربية؟ اختلاف الترتيب بينهما في الآيتين يوحي بعدم التقدم وهو الحق، فإنهما معاً يتساوران متعاونين في التربية الإسلامية، دون أن تكون لكلٍّ مدرسة على حدة، فالتزكية التي لا تحمل التعليم جاهلة دنسة، والتعليم الذي لا يحمل التزكية جاهل دنس، فرب عالم لا عقل له، فالإسلام لا يريد علماً بلا تزكٍّ ولا تقوى بلا علم، فليس بإمكان المسلم أن يحلِّق على المثل العليا إلا بجناحي العلم الحكيم والتقوى، وكل منهما يساند الآخر، كلما ازداد العلم والحكمة بآيات الله ازداد التزكي كالعكس تماماً.

ثم التلاوة لا تعني القراءة اللفظية فحسب، فإنها من الرسول المعلم المزكي قول بليغ في الأنفس: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾[٢] ولا يبلغ القولُ الأنفسَ إلا إذا خرج من حاق النفس، مازجاً فطرة القائل وفكرته وعقله وأعماله، وهذه هي التلاوة حقاً، وكما هي لغوياً: المتابعة: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾[٣] تلاها: تبعها، فالرسول يتلو القرآن اتباعاً له في كافة المجالات، ويتلوه عليهم كما تلاه هو في نفسه، اتّباعاً له، وإتْباعاً لهم، وهكذا تلاوة له عليهم تجعلهم علماء حلماء حكماء أزكياء، إضافة إلى ما يعلّمهم ويزكيهم.

ثم تعليم الكتاب - القرآن - له درجات، لفظياً وتعبيرياً وفي إشاراته ولطائفه وحقائقه، على حد قول الإمام علي عليه السلام: «كتاب الله على أربعة

(١) سفر التكوين الفصل ١٧ - الآية ٢٠ - تجده بالنص العبراني في تفسير دعاء إبراهيم في البقرة.
(٢) سورة النساء، الآية: ٦٣.
(٣) سورة الشمس، الآيتان: ١، ٢.